

الكتابة التاريخية عند طه حسين (على هامش السيرة أنموذجاً)

باقر محمد جعفر الكرياسي
ماجستير في التراث

المدخل:

علم من أعلام الفكر الإنساني، وأديب من أبرز أدباء العصر، ومثقف وسعت ثقافته القديمة والحديثة، وكاتب فتح للأدب العربي آفاقاً عالمية، ومؤلف ترجمت آثاره إلى أكثر اللغات الحية، فهو مكافح كبير قضى حياته في كفاح متصل، بدأه في طفولته وشبابه لكي يعد نفسه لما سيضطلع من رسالة كبرى في كهولته وشيخوخته، كافح في كتاب القرية، وفي الأزهر والجامعة المصرية القديمة، وتابع الكفاح في فرنسا، وما أن عاد إلى وطنه عام ١٩١٩ حتى اضطلع بكفاح طويل مرير تعددت ألوانه وتنوعت سبله فشمّل الصحافة والسياسة، والأدب واللغة، والعلم والتعليم،

اعتد تجربة الرأي وتحكيم العقل، استنكر التسليم المطلق، ودعا إلى البحث والتحري بل إلى الشك والمعارضة، وأدخل المنهج النقدي في ميادين لم يكن ممكناً من قبل أن يطبق فيها.

عاش طه حسين حياته بين سنتين ١٨٨٩ و ١٩٧٣ في اجتهاد دائم وبحر متواصل لم يعرف إلى الاطمئنان سبيلاً، وقد اقترن هذا كله بمسألة عدها أساساً في وجود الثقافة وفي جوهر تكوينها تلك هي مسألة الصدق الذي جر عليه متاعب كثيرة وكبيرة توزعت بين العزل من الوظيفة والمحاكمة والحملات العنيفة القاسية التي تعرض لها من كتاب جيله والجيل السابق له، إذ كانت مصر تودع القرن التاسع عشر وتستقبل القرن العشرين وهي تقاسي تحالف الاحتلال الأجنبي وسلطات الحكم الوطني يستعينان على الأمة بالجهل والتخلف والتفرق^(١)

ففي عصر طه حسين أحسن المؤرخون رواية التاريخ ولم يحسنوا فلسفته لأنها كانت تبحث عن صياغة جديدة لنفسها ولتاريخها وفكرها ، فالمرحلة التاريخية التي جرت مع طه حسين في بداية حياته الفكرية تتسم بكونها مرحلة توصف بـ (النهضة) .

كان منهج طه حسين قائما على العدل وعلى حرية الرأي مما دفع بحياته ونتاجه نهضتنا إلى الأمام أشواطاً طويلة.

ورحم الله تعالى الشيخ عبد الله العلايلي حين قال عبارة جميلة في تأبين طه حسين أذكرها لحد الآن: (عبقري شق طريق الإبداع الفني، وخلق جيلاً دفع الأدب العربي إلى القمة، إن في القصة ولا أجمل ، أو في النقد ولا أعمق ، أو في التحليل ولا أجمل ، أو في كسر القيود ولا أجراً).

البحث:

كان للعرب عند ظهور الإسلام نصيبهم من الأخبار التاريخية التي تختلط فيها الحقائق بالأساطير اختلاطاً يجعل التمييز بينهما من الأمور الشاقة لعدم وجود مدونات يرجع إليها عند المقابلة والتمحيص ، والموازنة والتحقيق، وكان أكثر هذه الأخبار يدور حول ما يسمى (أيام العرب) وحروبهم قبل الإسلام ، وانشابهم ، وأخبار بعض القبائل البائدة ، ولكن الكتابة في العصر الجاهلي لم تكن واسعة الانتشار، لكنها مع ذلك لم تكن مجهولة الجهل كله، بل كانت شائعة الاستعمال في كتابة العهود والمواثيق والصكوك والرسائل ، ولكن العقلية الجاهلية كانت أقدر على قول الشعر منها على معالجة كتابة التاريخ^(٧) ،

وفي أول عهد الإسلام شغل المسلمون بالفتوح والحروب والغزوات حتى توطدت مكانة الإسلام ورسد قواعده وعلت مكانته واستوثق أمره ، ولما هدأت فورة الفتوح وحدث نوع نسبي من الاستقرار بدأ المسلمون يتجهون إلى ثبات الأخبار ، وتسجيل الأحداث ، وأقبلوا على جمع الأحاديث النبوية الشريفة وتفسير القرآن.

بعد ذلك أتجه أكثر من واحد من العلماء إلى علم التاريخ من ناحيته

الخاصة والعامة وهي سيرة الرسول (ص) منهم :عروة بن الزبير (ت ٩٣هـ) الذي روى كثيرا من الأخبار والأحاديث ، وأبان بن عثمان (ت ١٠٥هـ) الذي ألف في السيرة صحفا جمع فيها كثيرا من حياة الرسول (ص)، ووهب بن منبه (١١٤هـ) وهذا له كتاب في أخبار ملوك اليمن ، وغيرهم كثيرون أمثال شرحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ) وابن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) ومنهم من عاش حتى أوشك أن يدرك منتصف القرن الثاني أوجاوزه بقليل مثل موسى بن عقبة (ت ١٤١هـ) ومعمار بن راشد (ت ١٥٤هـ) ومحمد بن إسحاق (ت ١٥٠هـ) ^(٣)،

إن التاريخ الذي دونه هؤلاء المؤرخون واجه به الباحثون أمورا شاقة عند قراءتهم له ، فالباحث يحتاج الى إحاطة شاملة بكثير من العلوم ، من تفسير وحديث وتاريخ وفقه وأدب وفلسفة وعلم كلام وتصوف ، فبرزت الحاجة إلى إعادة كتابة تاريخنا الإسلامي من جديد، ورسم صور أعلامه كالنبي محمد (ص) ورجال الصدر الأول من الإسلام و من خلفاء وقادة وفلاسفة وكذلك كتابة دراسات وأبحاث عن الدولة الإسلامية ،

والتاريخ لا شك مفيد في شقه الأدبي أي الشق الذي ينفث فيه الأديب من روحه ونظراته وفكرته ثم بعد ذلك يجمله بأسلوبه ، على ألا يكون ثمة زيف وإنما هو إبراز حق وجلاء غامض ، فالغرب غني بمثل هؤلاء ممن جعلوا من التاريخ قصصا تضم أشقات الحقائق ، بينما افتقر الشرق إلى من يسد هذا النقص إلا في القليل النادر الذي لا يذكر ^(٤) ،

لذلك عاش الشرق لا يتمثل تاريخه كله ولا يجمع العامة على ما اجتمعت عليه الخاصة من فهم عميق وإدراك واع لما فيه على الرغم من كثرة ما بين أيدينا من كتب في التاريخ العام ^(٥) ،

وفي عصرنا هذا يتصدى طه حسين إلى كتابة التاريخ الإسلامي فيكتب على هامش السيرة بأجزاء ثلاثة الأول : صدر عام ١٩٣٣ و صدر الثاني : ١٩٣٧ أما الثالث : فكانت سنة إصداره عام ١٩٣٨ ، بعدها كتب الفتنة الكبرى بجزأين الأول : صدر عام ١٩٤٧ فيما صدر الثاني : عام ١٩٥٣ بعدها أصدر الوعد الحق عام ١٩٤٩

ثم أصدر عام ١٩٥٩ مراًة الإسلام بعدها أصدر كتابه الأخير في التاريخ الإسلامي عام ١٩٦٠ واسماه (الشيخان) ،

طه حسين يكتب (على هامش السيرة) :

في ثلاثينات القرن الماضي بدا واضحا الاهتمام بكتابة التاريخ الإسلامي ، فصدر في أقل من عام أكثر من عشرين كتاب في الإسلام إذ سلكت هذه الكتب المنهج الحديث في كتابة التاريخ وفي مقدمتها (الإسلام والحضارة) للأستاذ محمد كرد علي (ت ١٩٥٣م) ، وضحي الإسلام للدكتور أحمد أمين (١٨٨٨-١٩٥٦م) وغيرها من الكتب ، وفضل الدكتور طه حسين في كتابة تاريخ الإسلام يرجع إلى ذلك اليوم الذي دعا فيه صديقيه الدكتور أحمد أمين والأستاذ عبد الحميد العبادي على كتابة التاريخ الإسلامي من فجر الإسلام حتى آخر عصر الدولة الأموية ، بحيث يختص كل منهم بجانب من هذا البحث ، فاختص الدكتور طه حسين بالحياة الأدبية في الإسلام والدكتور أحمد أمين بالحياة العقلية والعبادي بالحياة السياسية.

فبدأ طه حسين بكتابة على هامش السيرة وكان واضحا من خلال ما كتبه عن السيرة النبوية الشريفة التي أراد من كتابته أن يحيي ذكر العرب الأولين والأدب القديم لأنه يعد ذلك كنزا فيشير إلى ذلك بقوله : (إلى هذا النحو من إحياء الأدب القديم ومن إحياء ذكر العرب الأولين قصدت حين أملت فصول هذا الكتاب)^(٦) ، فكان طه حسين يبني رؤيته النقدية على اساس (إن تأريخنا الأدبي يمكن إعادة بنائه على نحو ما فعله أهل أوربا بتأريخهم مع عدم الإعراض عن تأريخنا العربي الإسلامي مادام مثل تأريخهم مليئا بالأحداث والأخبار التي في وسعها أن تلهم المبدعين العرب كما ألهم تأريخ أوربا مبدعيهم)^(٧) ،

ويرى طه حسين إن تأريخنا مصدر من مصادر الإلهام ولكننا نعرض عنه فيقول (فأما نحن فنعرض عن التاريخ العربي إعراضا يوشك أن يكون تاما لا نكاد نحفل منه إى بعصر البطولة الذي نجتمع كلنا على حبه والإعجاب به ، فنحن نتحدث عن عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ونحن نذكر دمشق

عاصمة بني أمية ونذكر بغداد عاصمة بني العباس ونذكر القاهرة عاصمة الفاطميين ، نذكر هذا كله نلتمس فيه الفخر في القديم ونلتمس فيه العبرة والفتنة أيضا ، ولكن من الخير أيضا أن ننظر إلى تاريخنا على أنه مصدر من مصادر الالهام الأدبي وعلى أنه جزء من حياتنا الواقعة لم تنقطع بيننا وبينه الأسباب ، فنحن ما زلنا نشارك القدماء فيما شعروا وفيما أحسوا لا يفرق بيننا وبينهم إلا هذا التطور^(٨) ،

والدكتور طه حسين اختار جانب الحياة الأدبية في الاسلام، وهو الذي يجيده ويتقنه ولكنه برغم هذا كان مؤرخا حين تناول بالدراسة السيرة النبوية في كتاب (على هامش السيرة) وكان مؤرخا في ترجمته للخلفاء الراشدين الاربعة (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي) ، وكان مؤرخا أيضا حين تناول بالدراسة المجتمع الإسلامي بعد الرسول في كل من (مرآة الرسول) و (الوعد الحق)^(٩) ،

ويتبين منهج طه حسين في كتابته للتاريخ الإسلامي حين قال وبصراحة في مقدمة الجزء الأول في كتابه (على هامش السيرة) إذ يقول : إلى هذا النحو من أحياء الأدب القديم ، ومن إحياء ذكر العرب الأولين ، قصدت حين أملت فصول هذا الكتاب ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسي ولا عن هذا الكتاب فإني لم افكر فيه تفكيراً ولا قدرته تقديراً ، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يعتمد المؤلفون ، إنما دفعت الى ذلك دفعا ، واكرهت عليه أكرها ، ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسي ويفيض بها قلبي وينطلق بها لساني ، وإذا أنا أملت هذه الفصول وفصولا أخرى أجوا أن تنشر بعد حين ، فليس في هذا إذا تكلف ولا تصنع ولا محاولة للإجادة ولا اجتناب التعقيد ، وإنما هو صورة لسيرة طبيعية صادقة لبعض ما اجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب التي لأعدل بها كتباً أخرى مهما تكن ، والتي لا أمل قراءتها ، والتي لا ينقضي حبي لها وإعجابي بها ، وحرصني على أن يقرأها الناس^(١٠) ،

بهذه العبارة يحدد طه حسين ضمناً منهجه في البحث التاريخي فمن يقرأه يدرك على الفور أنه أمام أديب مؤرخ يحس فيتصور مما يحس صورة ، هي

من جوهر التاريخ لا من تفصيله وهي لب ما في التاريخ الذي نحب أن نتمثله جميعا ليكون لنا فيه جميعا الصورة المشتركة، ومن المؤكد كان هدف طه حسين الأول هو تنقية المادة الإسلامية مما يتداخل معها من المواد الأخرى من العلوم والفنون، وتبسيط هذه المادة بالقدر الذي لا يفقدها معناها وأخيرا تسهيل وصولها إلى متناول الأيدي بدلا من خزنها في المكتبات ففي مقدمة(على هامش السيرة) يقول: (هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين، لأنني لم أرد بها إلى العلم، ولم أقصد بها إلى التاريخ، وإنما هي صورة عرضت لي أثناء قراءتي السيرة فأثبتتها مسرعا) (١١)،

يعني هذا أن الغرض من كتابة طه حسين للسيرة هو أن يقرب هذه السيرة من خلال الأسلوب المبسط من الناس بعد أن باعدت الأساليب المعقدة بين السيرة والناس ، والدكتور طه حسين : (لا يشك لحظة في قيمة ما سيقدمه من عمل بعد أن أكتشف أن الذين يقرأون السيرة من القلة بحيث يعد الإنسان نفسه ظافرا لو وجدهم في هذا الزمان الذي يقرأ فيه الناس لمعاصرين تشييع البساطة والسهولة في كتاباتهم) (١٢) ،

هذه رسالة الدكتور طه حسين وزملائه عندما شرعوا يكتبون الحياة الإسلامية في جوانبها الثلاثة ، أن يقدموا الحياة الإسلامية بأسلوب جديد ونظرة عصرية تتفق مع سمات هذا العصر ، حتى يستطيع جذب أكبر عدد من المثقفين إلى القراءة وخاصة تلك القراءة التي تهتم بالإسلام دينا ودولة ورجالا ، إذ كانت مهمة طه حسين أن يغريل هذه المادة الموجودة في بطون الكتب والمنتون والأسانيد وتقديمها بعد ذلك في أسلوب جديد يقرأه الجميع من الشباب وغير الشباب ،

أما الأحداث في كتاب (على هامش السيرة) فكانت تدور ما بين اليونان والشام والعراق وفارس واليمن والجزيرة العربية ومصر والحبشة ومعها يمضي ميلاد عظيم يتأهب له العالم ويسعى لرؤيته واستقباله ونيل الخلاص على يديه ، وسوف نرى شبانا يونانيين وثنيين ما زالوا يلفظون سرا لوثنيتهم الآفلة

بعد أن انتشرت المسيحية في بلادهم وأصبحت دين القيصر والدولة وعامة الناس وسوف نرى شبانا مسيحيين يخرجون من بلادهم بحثا عن الدين الجديد يلتمسونه فيما حولهم من بلاد وثقافات ومنها هذه البلاد الصحراوية البعيدة التي لا يعرف سلطان القيصر طريقه إليها ، فيصل بعضهم ويموت آخرون دون الغاية (١٣) .

كانت أحاديث طه حسين منفصلة في كتابه بتباعد المدن والسنوات حتى تتجمع في النهاية خيوط أحاديثه وشخصياته في مكة أويثرب أو في غيرهما من المدن والبلاد التي شهدت ظهور الرسالة الجديدة أو كان لها شأن في تاريخها ، كما يؤكد الكتاب (على هامش السيرة) على سهولة أسلوبه الذي يمتع من يقرأه على مر السنين الماضية ويمتع أهل زماننا عند قراءته ،

أما اهتمامه في هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة فكان على سيرة ابن هشام (ت ٢١٨هـ) وطبقات ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) وتاريخ الطبري (ت ٣١٠هـ) وحاول أن يقدم هذه المادة التاريخية إلى قلوب الناس بالطريقة السهلة القصصية التي اعتمد عليها في كتابته التاريخية فيقول بهذا الصدد : (ولن يتعب الذين يريدون أن يردوا فصول هذا الكتاب القديم في جوهره وأصله ، الجديد في صورته وشكله إلى مصادره القديمة التي أخذ منها ، فهذه المصادر قليلة جدا لا تكاد تتجاوز سيرة ابن هشام والطبقات وتاريخ الطبري ، وليس في هذا الكتاب فصل أو نبأ أو حديث إلا وهو يدور حول خبر من الأخبار ورد في كتاب من هذه الكتب فإذا اتصل الخبر بشخص النبي فإني أردته إلى مصدره ليستطيع من شاء أن يرجع إليه ،

ولاحتمل في ذلك تبعة خاصة لأنني لأذهب فيه مذهبا خاصا إلا أن يكون تبسيطا للشرح والتفسير واستنباط العبرة والوصول إلى قلوب الناس) (١٤) ،

هكذا كانت كتابة طه حسين للتاريخ الإسلامي ، إذ كتبه بهذه الصورة الدقيقة التي طبقها على النص العربي القديم وكأنه يرغب في ذلك إلى إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي على أساس يرتكز على النصوص الصحيحة الثابتة على وفق ما يقتضيه سبق الأحداث ويرجحه العقل ، لذلك سعى في إسلامياته تقديم

التاريخ العربي الإسلامي في صورة مبسطة تختلف عن الطريقة التقليدية التي كتب بها ، أي أنه كتب التاريخ بكل جرأة وشجاعة وحلل النصوص التاريخية وأعطاه مسارها التاريخي بعقل ناضج متنور ،
 رحم الله تعالى طه حسين فكان في حياته لافتا للنظر وبعد مماته التفتت إليه الأقلام أكثر.

هوامش البحث

- (١) الكيالي ، سامي : مع طه حسين ، ص ٨ ،
- (٢) مجلة قضايا عربية : العدد ٢٢ أيار ١٩٧٥ ، ص ٧٥ ،
- (٣) مجلة الهلال : عدد خاص عند طه حسين ، العدد ٢ شباط ١٩٦٦ ، ص ١٢٥ ،
- (٤) نفسه : ص ١٢٦ ،
- (٥) نفسه ص ١٢٧ ،
- (٦) طه حسين : على هامش السيرة ، ج ١ ، ص ٥ ،
- (٧) نفسه : ص ١١ ،
- (٨) نفسه : ص ١٤ ،
- (٩) كريم ، سامح : إسلاميات طه حسين ، ص ٢٤ ،
- (١٠) طه حسين : على هامش السيرة ، المقدمة ص ٦ ،
- (١١) نفسه : المقدمة ص ١ ،
- (١٢) نفسه : ص ٧ ،
- (١٣) نفسه : ص ٨ ،
- (١٤) نفسه : المقدمة ص ٣ ،

مراجع البحث

١- الكتب :

(١) طه حسين : على هامش السيرة ، ثلاثة أجزاء دار المعارف ، مصر

(٢) كريم ، سامح: إسلاميات طه حسين ، دار القلم بيروت ، لبنان ،

(٣) الكيالي ، سامي : مع طه حسين ، سلسلة أقرأ العدد ١١٢ مايو

١٩٥٢ ، دار المعارف ، مصر ،

٢- المجلات :

(١) مجاة قضايا عربية : العدد ٢ السنة الثانية أيار ١٩٧٥ بحث

بعنوان (أصول الكتابة التاريخية) بقلم علي أدهم ،

(٢) مجلة الهلال : عدد خاص عن طه حسين ، العدد ٢ ، شباط

١٩٦٦ ، بحث بعنوان : (طه حسين المؤرخ الإسلامي) إبراهيم الأبياري ،